# فوق خشبة قديمة

بقلم : حنيفة فتحى

ذهبت لمشاهدة البروفة التى تجرى على المسرح لاوبريت ( ..... ) نصف ساعة قضيتها فى نشوة عجيبة، ثم تطلعت الى ساعتى لارى الوقت اذ كنت مرتبطة بموعد بعد ذلك ... ولشدة دهشتى وجدت ان ما قضيته من الوقت لم يكن نصف ساعة بل ساعتين وانا جالسة فى مكانى مشدودة الاحساس الى ما يجرى أمامى دون انتباه للزمن .

فى خلال هاتين الساعتين رايت المشهد الذى يتمرنون عليه ... مرتين المرة الأولى فى غرفة متسعة ... مستطيلة استبدلت احدى حوائطها الاربع بمرآة كاملة يرى الراقصون والراقصات انفسهم واشباحهم وهم يتحركون اثناء التمرين ..

كنا اربعة اشخاص ... رسام ضيف اتى من بلد اسيوى صديق ... وشاعر غربى اتى من بلاد بعيدة من اواسط اوربا ... ثم مخرج الاوبريت الفنان الرقيق ذو الافكار الحديثة والخيال الجرىء ... وانا .

جلسنا فى مقاعدنا صامتين بركن الغرفة نرقب المجموعة الكبيرة من الممثلين وهم يقومون بأدوارهم التى حفظوها من ساعات قليلة فقط ، وبينما هم يمثلون كان الملقن يقوم بدور عقلهم الباطن فيلقى اليهم الجمل والكلمات التى عليهم ان ينطقوا بها ، أما المخرج فقد كان يقوم بدور الرب الذى يحركهم كما يشاء ويرضي .

الغرفة على رحابتها تضيق بنا .... ونحن الاربعة فوق مقاعدنا وكأننا نشاركهم التمثيل ونقوم بينهم بدور المتفرجين ... هم الممثلون ونحن المتفرجون داخل اطار واحد ... وعلى غيرنا ان يصفق انا عندما ينتهى المشهد .

ثم طلب المخرج من الممثلين ان ينتقلوا الى خشبة المسرح لكى يقوموا بأداء البروفة مرة اخرى مع باقى المجموعة من المغنيين والراقصين والموسقيين .

وذهبنا ... الرسام والشاعر وانا الى صالة المسرح بينما انضم المخرج الى ممثلاته وممثليه .

المقاعد كلها خالية والصالة تسبح فى الظلام ... ورائحة الاتربة تملأ الجو والبرودة تشيع فى المكان الخالى من الانفاس . ووجدتنى امشي على اطراف اصابعى ، والقى بكلمات همسا الى زميلى ... اخشي ان اقلق غيرى من المشاهدين ... ولم يكن هناك أحد غيرنا من المشاهدين ... خيل الى ان كل كلمة وكل حركة فى الصالة سوف تبدو شاذة ونشاذا فى هذا الجو المتلىء بالفن ... سوف تقلل من الاحترام لما يدور فوق الخشبة القديمة .

وتطلعت الى المسرح بعينين متعطشتين ... هنا فى هذا الجو اعثر على حياتى الحقيقية حياتى التى يرسمها خيالى وتخططها احلامى ... حياتى التى تتلاشى امامها جميع مطالب الحياة الواقعية والمادية . بين الممثلين والممثلات والمغنيين والمغنيات والموسقيين والطائرين فوق المسرح بحركاتهم الموقوتة الرشيقة وهم فى ملابسهم الملتصقة بأبدانهم تبرز جمال تكوينهم وانسجام عضلاتهم ، انهم كالارواح الهائمة ... كالشياطين او كالملائكة نساء ورجال وليسوا من البشر ...

وانتحى كل فرد ركنا وسط الزحام وراح يعيد اداء دوره ويكرره حتى يتقنه هذا يغنى بصوت مرتفع ... وذاك يصيح لنفسه ... ( ولماذا نشترى من الاجنبى ؟ ) ولا أحد يرد عليه ... بينما اخذ عازف البيانو يعزف لحنا شرقيا رائعا ممتلئا حنانا وأملا ونشوة .. ثم اخذ يكرره ... ويكرره ... ويكرره حتى استحال فى اذنى الى دقات مملة سخيفة ... يا لله !! اهكذا اذا ما انقلب الجمال الى روتين وتكرار فقد الفن روعته والحنان رقته وانطفأ بريق الامل ...؟؟ وهذه الفتاة المشوقة تتبع خطوات الفتى النحيل الذى يقفز هناك فى توتيت لا يدرك سره الا هو وهى ... فلا تسمع لاقدامهما وقع ، ولا يكاد يكون لهما ظل ايضا فوق الارض .

واستنشقت العبير الذى يملأ الجو فى لذة كأنما استنشق عبير الحياة ... التراب المعطر الذى يهب من ناحية المسرح ومن الديكورات ومن بين الكواليس . كم راودتنى فى ايام طفولتى رغبة جامحة لا تعلم رقص الباليه اظنها راودت معظم الفتيات ... ولكنى كنت اجبن من ان احقق املى وانشبث برغبتى ، ولكن لم اكن جبانة بالقدر الذى يمنعنى من تحرير ضميرى وخواطرى من كل ما يجول

بهما بصدق وصراحة فوق الورق . وهكذا استبدلت التعبير بالجسد بالتعبير بالقلم .

وراح خيالى يسبح ويسرح ويترجم ما اراه فوق المسرح الى قصة تحول فيها الممثلين والممثلات الى أفراد أسرة واحدة يعشق كل منهم فنا مخيلفا . ويجتمع أفراد الأسرة مساء كل يوم فى صالة بيتهم الواسعة حيث يقوم كل منهم بممارسة الفن الذى يعشقه..هذا يرسم وذاك ينحت تمثالا.. وهذه ترقص وتدور طول الوقت والاخر يغنى بصوت مرتفع ..... واخرى تعزف على الكمان او البيانو .. وهكذا ... واو كان بالمكان متسع لقام احدهم بترويض لبؤة مفترسة وانشأ غيره مطبعة لطبع جريدة تنشر اخباره فقط . كل مخلوق يحيا حياته كما يشاء ... كل واحد ينام على الجنب الذى يريحه ... لا احد يتضجر ولا احد ينتقد لأن لا احد يلتفت الى ما يفعل الآخرون ولا احد يهتم بغيره ولا يستمع الا لصوته او لكلامه . ويجرح المثل يده جرحا كبيرا ويأخذ دمه يسيل . ويصيح الآخرون أن ينقذوه ان يلتفتوا اليه .... ان ينادوا له الطبيب ، وبكل هدوء يخرج المغنى منديله من جيبه ويربط له الجرح ثم يسحبه من ذراعه ويفتح الباب ويدفع به الى الخارج قائلا له اذهب ابحث لنفسك عن طبيب ، حتى هذه الحركة لا يلتفت اليها احد ... المغنى فقط هو الذى تحرك لانه لايريد ان يشاركه احد فى الصياح .

.... اظنها سوف تكون قصة مضحكة ساخرة ... قصة تسخر من مأساة الانسان الذى يولد ليعيش حياته ثم يموت ولا احد يراه او يسمعه .

فجأة انطلق صوت المخرج آمرا كصوت الآلة او القدر طالبا من الجميع اتخاذ اماكنهم للبدء فى العمل .

وانتظم الممثلون ..... وابتدا المشهد الذى رايناه فى الغرفة المغلقة يعاد امامنا ولكن كل شيء مختلف .. كل شيء فى موضعه الطبيعى .. الممثلون يدخلون ويخرجون من بين الكواليس ، والديكورات والمناظر تحدد المكان وتضفى عليه رونقا والممثلون وقد ضم كل منهم عبقريته الى عبقرية زميلته وزميله فتكونت منهم فى النهاية قطعة غنائية تمثيلية فنية رائعة ... هكذا برز العمل الفنى يعلن عن نفسه كاقوى مايكون . ان كل قطعة على حدة جميلة ولكنها لا تعطى كثيرا ولا تعنى شيئا يذكر ... لانها لاتهم الا صاحبها ولا تتخاطب الا معه . انها مأساة الانسان .... كل فرد يتحدث الى نفسه ..... يغنى لنفسه ..... يخاطب نفسه ..... يعزف لنفسه .... يرقص طربا لنفسه ... مأساة الانسان الساخرة المضحكة . ولكن لو تجمع الواقع فوق الارض كما تجمع الخيال والفن فوق الخشبة القديمة فى هارمونى رائع وانسجام جميل لاكمل كل فرد غيره وكتبت قصة الحياة كما يجب ان تكتب .

وخرجنا نحن الثلاثة من دار المسرح ..... وتركنا الرب مع مخلوقاته .... وتصافحنا ثم تفرقت بنا الجهات ، وذبنا كل منا فى طريق مختلف ، وانا موقنة من ان الرسام والشاعر قد حمل كل منهما فى قلبه نفس الاحساس الذى احسست به انا كاتبة القصة .